القصص الديني
الحلقة الثالثة
قصص الخلفاء الراشدين

الإمام علي بن أبي طالب
رضي الله عنه

عبد الحميد جودة السحار

١٦

بسم الله الرحمن الرحيم

« وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ، إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ ، إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا » .

(قرآن كريم)

١

قتل المصريّونَ عثمان ، وخشِيَ النّاسُ الثُّوار ، فاعتكفوا فى دُورهم ، واستمرّتِ المدينةُ تموجُ بالثُّوار مَوْجا ، وأصبحتْ لا أميرَ لها ، وفكّر النّاسُ فى مُبايعةِ خليفةٍ لهم ، فذهبَ المِصريّونَ إلى عليِّ بن أبى طالب ، ولكنّه اختبأ منهم ؛ لم يكنْ يَقبلُ أن يبايعَه الّذين قتلوا عثمان ، وظلوا يبحثونَ عنه حتّى لقُوه ، فباعدَهم ، وظلَّ يتبرّأُ منهُم ومن مقالتِهم .

وذهب الكوفيّون إلى الزُّبير . وأرسلوا إليه رُسُلاً لمحادثته فى أمرِ البَيْعة ، ولكنّه باعدَهم وتبرّأ منهم .

وذهب البَصْريُّونَ إلى طَلْحة ، فلقِيَهم ولم يَقبلْ بَيْعَتهم ، وانقضَى اليومُ الأوّل ، ولم يجدِ الثُّوارُ من يقبلُ الخلافة .

وبرزتْ شمسُ اليوم الثانى ، فراحَ الثّوّار يفكّرونَ فيمن يُولُّونَه الخلافَةَ غيرَ هؤلاءِ الّذينَ رفضوها ، فلم

يجدوا من أهلِ الشُّورَى إلا سعدَ بنَ أبى وَقَّاص ، فأرسلوا إليه وفدًا يُكلِّمهُ فى ذلك .

خرج وفدُ الثُّوّار ، وجاءوا سعدًا ، وقالوا له :

– إنَّك من أهلِ الشُّورَى ، فرأيُنا فيك مُجتمِع ، فأقدِمْ نُبايْعك .

فقال لهم :

– إنّى وابنَ عمرَ خرجنا منها . فلا حاجةَ لى فيها على حال .

وسادتِ الفوضَى المدينةَ ، وظلَّ الثُّوّارُ يغْدونَ ويروحونَ بين صحابةِ الرَسول ، فقد يَسمعُ مَنْ فى الأمصارِ بقتلِ عثمانَ ولا يسمعونَ أنّه بويعَ لأحدٍ بعدَه ، فيثورُ كلُّ رجلٍ فى ناحية ، فيكونُ فى ذلك الفساد . ورأى كبارُ الصحابةِ أن يأتُوا عليًّا مرَّةً أخرى ، يعرِضون عليه الأمر ، فدخلوا عليه فى دارِه ومعه ابنُه محمَّد بنُ الحنفيَّة ، فقالوا له :

ـ إنَّ هذا الرجلَ قد قُتِلَ ولا بدَّ للنَّاس من إمام ، ولا نجدُ اليومَ أحدًا أحقَّ بهذا الأمـرِ منك ، لا أقدَم سابقة ، ولا أقربَ من رسولِ اللّهِ صلَّى اللّهُ عليه وسلَّم .

فقال على .

ـ لا تفْعلوا .

وخشيَ النَّـاسُ أن يُصِرَّ على الرّفض ، فقالَ له الأشتَرُ ؛ وكان من أنصاره :

ـ ابسُطْ يدَك نبايعْك .

ـ لا حاجةَ لى فىَ أمرِكم ، أنا معكُم ، فمن اخترتم فقد رضيتُ به ، فاختاروا .

ـ واللّه ما نختارُ غيرَك .

ـ لا تفعلوا ؛ فإنى أكونُ وزيرًا خيرٌ من أن أكـونَ أميرا .

فقال له الأشتَر :

ـ والله لتمدَّنَّ يدَك نبايعك ، أو لَتعصـرَنَّ عينيـك عليها ثالثةً (يقصد الأشترُ أن عليًّا حزِنَ لَمَّا بويـع لأبى بكر بالخلافةِ دونَه ، وأنَّه حزن يوم بويعَ لعثمانَ ولم يُبـايَع لـه ، وأنَّـه إذا رفضَ هـذه المـرَّةَ الخلافـةَ فسيحزنُ عليها للمرَّةِ الثالثة) .

وقال النَّاسُ لعليّ :

ـ إنَّه لا يَصْلُحُ النَّـاسُ إلا بإمرَة (أى إلاّ وعليهـم أمير) ، وقد طالَ الأمر .

فقال لهم عليّ :

ـ إنكم قد أتيتُم إلَىَّ ، وإنّى قـائلٌ لكـم قـولاً ، إن قبلْتُموه قبلتُ أمرَكم ، وإلاّ فلا حاجةَ لى فيه .

فقالوا له :

ـ ما فعلتَ من شىءٍ قبلناهُ ، إنْ شاءَ اللّه .

ـ ففـى المسجد ، فإنَّ بيعَتـى لا تكـونُ خِفْيـا ، ولا تكونُ إلاّ عن رضَا المسلمين .

وذهبَ عليٌّ إلى المسجد ، وصعِدَ المنبر ، فاجتمعَ النّاسُ إليه ، فقال :

ــ إنّي قد كنتُ كارهًا أمرَكم (أى كارهًا أن أكونَ أميرًا عليكم) ، فأبيتُم إلاّ أنْ أكونَ عليكم ، ألا وإنّه ليسَ لى أمرٌ دونَكم ، إلاّ أنَّ مفاتيحَ مالِكم معى ، ألا وإنّه ليسَ لى أنْ آخذَ دِرْهمًا دونَكم ، رضيتُم ؟

ــ نعم .

ــ اللّهُمَّ اشهَدْ عليهم .

ودخلتْ أمُّ حبيبَةَ أختُ معاويةَ وزوجُ الرَّسولِ على نائلةَ زوجةِ عثمان ، وأخذتْ منها قميصَ القتيل ، وأصابعَ نائلَة التى أصيبتْ حين دافعتْ عن عثمانَ بيدِها ، وبعثتْ بها إلى أخيها معاويةَ مع رسول ، فخرجَ الرَّسولُ ومعه قميصُ عثمانَ مضمَّخٌ بدَمِه ، ومعه أصابعُ نائلة ، حتّى إذا ما بلغَ الشّام ، أخذَه منه معاوية ، ووضعه على المِنبرِ ليراه الناس ،

وعلّق الأصابعَ في كمِّ القميص ، فتباكى الناسُ حولَ المِنبر ، وكان القميصُ يُرفعُ تارةً ويوضَعُ أخرى ، فيحرِّكُ معاويةُ بذلك أحقادَ النّاس ، ويدعوهم للأخذِ بثأرِ عثمان .

٢

خرجتْ عائشةُ للحَجّ ، فلما قُتلَ عثمانُ هرب مَروان وبنو أميَّة ، ليلحقوا بمكَّة ، وتساقط الهُرَّابُ على مكَّة وعائشةُ مقيمةٌ بها ، فلمّا تساقط إليها الهُرّابُ استخبرتْ رجُلاً يقال له أخضر ، فقالت :

ـ ما صنعَ النّاس ؟

ـ قتل عثمانُ المِصريّين .

فقالت عائشة :

ـ إنّا للّه وإنّا إليه راجعون . أيقتُل قومًا جاءوا يطلبُون الحقّ ، ويُنكِرون الظُّلم ، واللّه لا نرضى بهذا .

وبقيتْ عائشةُ بمكَّة . وقدِم رجلٌ آخرُ فسألته :

ـ ما صنعَ النّاس ؟

ـ قتلَ المِصْريُّونَ عثمان .

ـ العجبَ لأخضَر ، زعم أنَّ المقتولَ هـو القـاتل ، ومن أميرُ القوم ؟

ـ لم يُجبْهم إلى التأمير أحد .

فقالت عائشة :

ـ أكَيِّسٌ هذا غِبَّ ما كان يدورُ بينكم من عتـابِ الاستصلاح ؟ !

وتلقَّتْ عائشةُ خبرَ مَقتَلِ عثمان ، فلم تغضـبْ ولم تثُر ، ولم تطالبْ بدمِهِ ، بل بقِيت فى مكَّة ، حتَّى إذا ما أتمَّت حَجَّها ، وعادتْ إلى المدينة ، لقِيَها رجلٌ من أخوالِها ، فقالت له :

ـ ما وراءَكَ ؟

فصمت ولم يتكلَّمْ ، فقالتْ له :

ـ ويحَكَ ! علينا أَوْ لنا ؟

ـ لا أدرى ، قُتِل عثمان ، وبقُوا ثمانِيا (أى وبقُـوا ثمانى ليال ، بدون أمير) .

ـ ثم صَنعوا ماذا ؟

ـ اجتمعوا على عليٍّ بن أبى طالب .

غضبتْ عائشةُ لَمّا علِمتْ أنّ عليَّ بنَ أبى طالبٍ صار أميرًا للمؤمنين ، فهى لم تَنْس أن عليًّا قال للرّسول إنّ النساء كثير ، لما اتّهمها المُنافقونَ ظُلما ، فقالت :

ـ واللّه ليتَ أنّ هذه انطبقتْ على هذه ، إنْ تمّ الأمرُ لصاحبك (أى ليتَ السَّماءَ انطبقتْ على الأرض) . رُدُّونى رُدُّونى . قُتِلَ واللّهِ عثمانُ مظلوما ، واللّه لأَطلبنّ بدمِه .

وعادتْ عائشةُ إلى مكّة ، وقد عزمتْ على تأليب القومِ على أميرِ المؤمنين علىّ ، وبلغتْ بابَ المسجدِ وهى لا تقولُ شيئا . وبلغ القومَ عودةُ أمِّ المؤمنين ، فأسرعوا إلى المسجد ، ليرَوْا ما الخبر ، فلمّا ازدحَم المسجد بالنّاس ، قالت عائشة :

ـ أيُّها الناس ، إنّ الغوغاءَ من أهلِ الأمصار وأهلِ المياه ، وعبيدَ أهلِ المدينة ، سفكوا الدَّمَ الحرام ،

واستحلّوا البلد الحرام ، وأخذوا المالَ الحرام ، واستحلّوا الشهرَ الحرام . إنَّ عثمانَ قُتِلَ مظلوما ، وإنَّ الأمرَ لا يستقيمُ ولهذه الغوغاء أمر ، فاطلبوا بدمِ عثمان تُعزُّوا الإسلام .

وقام عاملُ عثمانَ على مكةَ ، فقال :

ـ هأنذا لها أوّلُ طالب .

وابتدأ الناسَ يتجمّعون فى مكةَ حول عائشة ، ليناوئوا عليّا ، وليُطالبوا بدمِ عثمان .

ظلَّ طلحةُ والزُّبيرُ يُفكران فى تـركِ المدينـة ، فقد بايعا عليّا ، وكانا يظُنّان أنَّه قد يستعملهُما ويولّيهُمـا على الأمصار ، ولكنْ ظهرَ أنَّ عليًّا لن يستعملَهما ، فجاءا إليه يوما ، وقالا :

ـ يا أميرَ المؤمنين ، إيْذنْ لنا فى العُمْرة .

كانا يريدان أن يذهبا لينضمَّـا إلى عائشـة ، ففطَن عليٌّ إلى ذلك ، فقال لهما :

ـ نعم ؛ واللّه مـا العمـرةَ تُريـدان ، تُريـدان أن تَمضِيا لشأنكما .

فهمها عليّ ، ولكنه أذِن لهما بـالخروجِ إلى مكّـة ، فذهبا حتى قابلا عائشة ، فقالت لهما :

ـ ما وراءَكما ؟

فقالا لها :

ــ فارقنا قومًا حَيارَى لا يعرفون حقًا ، ولا يُنكرونَ باطلا .

ودخلت عائشةُ دارَها ، واجتمع عندَها الزُّبيرُ وطلحةُ ومروانُ وبنو أميَّةَ ووجوهُ القوم ، وأخذوا يتشاورون فى الأمر ، فقال قائل :

ــ نلحقُ بالشام .

ــ قد كفاكم الشامَ من يستمرُّ فى حوزته . (أى معاوية) .

ــ نسير إلى عليٍّ فُنقاتله .

ــ ليس لكم طاقةٌ بأهلِ المدينة .

وأخيرًا اتّفقوا على أن يخرُجوا إلى البَصرة .

وذهب القومُ يبحثونَ عن جملٍ شديدٍ يحملونَ عليه أمَّ المؤمنين ، ورأى رجلٌ من أنصارِ عائشةَ جملاً قويًا ، فاتَّجه إلى صاحبه ، وقال له :

ــ يا صاحبَ الجمل ، تبيعُ جملَك ؟

ــ نعم .

ـ بكم ؟

ـ بألفِ درهم .

ـ مجنونٌ أنت ، جملٌ يُباع بألفِ دِرْهم ؟

ـ نعم ، جملى هذا .

ـ ممّ ذلك ؟

ـ ما طلبتُ عليه أحدًا قطُّ إلا أدركْتُه ، ولا طلبنى وأنا عليه أحدٌ قطُّ إلا فُتُّه .

ـ لو تعلمُ لمن نريدُه لأحسنتَ بيعَنا .

ـ ولمن تُريده ؟

ـ لأمِّك .

ـ لقد تركتُ أمّى فى بيتِها لا تُريد بَراحا .

ـ إنّما أُريده لأمِّ المؤمنينَ عائشة .

ـ فهو لك ، فخُذْه بغير ثمنٍ .

وأخذ الرَّجـلُ ناقةَ عائشةَ وسِتمائةَ دِرْهـم ، فـى ذلك الجمل الشَّديد .

ونادى المنادى .

ـــ إنَّ أمَّ المؤمنينَ وطلحةَ والزُّبيرَ شاخِصون (ذاهبون) إلى البَصرة ، فمن كان يُريد إعزازَ الإسلام والطَّلبَ بثأرِ عثمان ، ولم يكنْ عندَه مَركَب ، ولم يكن له جَهاز ، فهذا جهاز ، وهذه نفقة .

وركِب الناسُ الجمالَ الّتى قُدِّمتْ لهم ، وابتدأ النّاسُ فى الخروج ، فجرتِ الدُّموع ، وارتفعَ النَّحيبُ والنَّشيج ، فما من خارجٍ للقِتال إلاّ وقد بكى ، وما من شاهدٍ للخُروجِ إلاّ ودمعُه منهمِر ، فإنّه ليرى خروجَ المسلمينَ لقتال المسلمين ، فلم يُرَ يومٌ كان أكثرَ باكيًا على الإسلامِ أو باكيا له من ذلِك اليوم ، يوم النَّحيب .